قصة من القرآن الكريم

بقلم : د. محمد احمد خلف الله

وقصة يوسف قصة انسانية ، تلعب فيها العواطف البشرية الدور الاول ، فتؤثر في سير الاشخاص وتوجههم نحو الخير او نحو الشر في حياتهم ، ثم هي قصة رحبة واسعة ، تتعدد فيها الشخصيات ، وتتلون الاحداث ويجرى فيها الحوار هينا ليبا رقيقا ، وتتوزع فيها العناصر التوزيع الذى يتطلبه الفن القصصى ، فهى موزعة بمقدار ، تظهر وتختفي حسب الظروف الطبيعية ، وحسب ما يحيط بالابطال من أحداث .

ثم هي ـ من حيث البناء القصصى ـ أجود قصة في القرآن ، ولعله من أجل هذا عدها القرآن من أحسن القصص ، حين قال : « **نحن نقص عليك أحسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين** » .

***

تبدأ القصة بتمهيد هو رؤيا يوسف : « **اذ قال يوسف لابيه يا ابت اني رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحاق ان ربك عليم حكيم** » . وتفهم نحن من هذا التمهيد ماسيدور في القصة من أحداث ثم يوسف فتعلم أنه سيكاد له ، ونعلم أن هذا الكيد لن يقضى عليه فسيجتبيه ربه ويعلمه من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليه ويجعله نبيا كما أتمها على ابويه من قبل .

والتمهيدات تظهر بكثرة في هذا الطور من القصص ، فنلحظها في قصة موسى في القصص .

« **نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم**

ما كانوا يحذرون » كما نلحظها في قصص عيسى في سورة مريم وفي سورة آل عمران ، والتمهيدات هنا قصص يأكلها قصة يحيى أو زكريا في سورة مريم تمهد لقصة عيسى وتهيء لها الأذهان ، وقصة مريم في آل عمران توحي بقصة ولادة يحيى ، وهي بدورها أيضا تمهد لقصة عيسى عليه السلام .

***

بدأ القصة بعد هذا التمهيد في شكل مؤامرة لاغتيال يوسف أو التنكيل به يدفع اليها الحسد والغيرة . ونسمع حديث القوم حول الطريقة التي يريدون سلوكها ، ونراهم وهم يرددون الأمر بين الخاسين : جانب القتل ، وجانب الالقاء في الجب ، ونفهم ان قد رجح الأمر الاخير . ثم نلحظ الجريمة وقد بدأت تأخذ شكلها العملي ، فهم يحتالون على ابيهم وهو يخشى أن يأكله الذئب ، وهم يؤكدون له أن هذا لن يكون ، وكيف يقع وهم عصبة ؟ وماذا يكون موقفهم لو أكله الذئب وهم عاملون ؟ انهم اذن خاسرون . وأخيرا يمضون بأخيهم الى حيث أرادوا ، ويجيئون أباهم عشاء وهم يبكون .

ونلحظ هنا نوعا من السذاجة يلائم العقل العربي او العقل البدوي ، فقد كان خوف ابيهم من أن يأكله الذئب ، وكانت حيلتهم للتعمية والتضليل اخبار ابيهم ان قد أكله الذئب ، والتجاوب بين الخوف والاعتذار سذاجة في البناء القصصي تلائم طبيعة البداوة فيما أعتقد .

ونلحظ بعد ذلك تلك السذاجة الرقيقة من الجن التي تغشى نفس يعقوب ، ونسمع حديثه اليهم وايمانه القلبي بأن أنفسهم قد سولت لهم أمرا ، ونرى استسلامه للقدر : فصبر جميل والله المستعان على ما يصفون .

ثم نمضي مع يوسف حين يلتقط من الجب وحين يشرى بثمن بخس ، فنترك فلسطين الى أرض مصر ، ونترك البادية الى المدينة ، ونستقر في بيت من اعظم بيوتها هو بيت العزيز ، ونستمع اليه وهو يوصي به خيرا لعله أن ينفعه أو يتخذه ولدا ، وهنا نحس أن يد العناية قد لمسته فمكنت له في الأرض وعلمته من تأويل الأحاديث ، ثم أخذت تدفع به الى الأمام ليتصدر على الكيد والحسد ، ويفوز على من أرادوا التخلص منه لتستقيم لهم الأمور ، وتستقر في نفوسهم اسباب الودة والسعادة ويكونوا من بعده قوما صالحين .

وفي بيت العزيز تتعقد الأمور ، فيكون الصراع بين العقل والعاطفة ، وينتصر العقل لدى يوسف الفاضل ، وتحس المرأة بالهزيمة فتملؤها ذلك حقدا وغيظا ، ويبدأ ـ بالنسبة الى يوسف ـ كيد جديد وتتهمه امرأة العزيز بأنه قد اراد بها السوء ، وأن جزاءه يجب أن يكون السجن أو العذاب الأليم . وهنا يدخل القصة عنصر جديد هو عنصر الكشف عن حقيقة الجريمة ، ويستدل العزيز على أن قميص يوسف قد من دبر .

وتتوالى الأحداث وهي طبيعية متسارعة ، اذ يسمع النسوة بالمدينة عن الحادث

فيوحدن كما هي عادتهن ـ بأكثار الحديث عنه ، وتسمع امرأة العزيز بما يدور حولها وتفكر في مخرج من هذا المأزق ، فتهديها فطرتها الى ذلك الاجتماع الذي يتغلب فيه العادلات عوادر لا يؤخذن بجمال الفتى ، ويرون أنه ليس من البشر ، وأنه ليس الا الملك الكريم . وتحس امرأة العزيز أن قد ملكت ناصية الموقف ، فيعاودها حرصها على اشباع رغبتها الجنسية وتعلن أمامهن أنها قد راودته عن نفسه فاستعصم ، وانه ان لم يفعل ما تأمره به ليسجنن وليكونا من الصاغرين .

ويختار يوسف الفاضل السجن ، ويرى أنه أحب اليه مما يدعونه اليه ، ويخشى انه ان لم يصرف عنهن أن تتغلب فيه النزعات البشرية والعواطف الجنسية فيصغب اليهن ويفعل ما يفعله الجاهلون . وعندما تلمس يوسف يد العناية فيستجيب الله لدعائه ويصرف عنه كيد النساء .

وندخل مع يوسف السجن ونلحظ ما افادته العناية الالهية ، كما نحلظ ما فيه من شعور ديني ، فهو يعبر الرؤيا لصاحبيه ، وهو يدعوهم الى التوحيد وعبادة الواحد القهار وهو ينهاهم عن عبادة الأوثان ، وهو يطلعهم على أن ذلك فضل الله عليه .

ثم يحمل الناجي من صاحبيه أمانة ويطلب اليه أن يذكره عند ربه ـ وان يكن الشيطان قد انساه . ويعاود الخط يوسف وتلمسه يد العناية حين يرى الملك رؤياه وحين يعجز الملأ عن تعبير تلك الرؤيا ، اذ عند ذلك يتذكر الناجي من صاحبي يوسف ويذهب اليه مستفتيا ، ويجيبه يوسف الى ما طلب ويعبر له الرؤيا ، ويدل على القصد من البقرات السمان والعجاف والسنبلات الخضر واليابسات .

ويطلب الملك يوسف وياتي هذا حتى يحقق الملك مبتغاه ، وحتى يرسل الى النسوة ويعلم منهن على الحقيقة فيما كان من امره مع امرأة العزيز ، وتأتي شهادة وتعلن أنها هي التي راودته ، وانه صادق في كل ما قال ، ويأتي يوسف ويطلب الى الملك أن يجعله على خزائن الارض ، ويستجيب الملك وينال يوسف مبتغاه .

وفي مدة السجن هذه نلحظ اثر العنصر النبوئي أو الغيبي والدور الذي لعبه في القصة ، نلحظ كما لحظنا من قبل اثر العنصر الجنسي في توجيه حياة يوسف من الكيد له في اثناء مقامه في بيت العزيز الى أن انتهى به ذلك الكيد الى اتقانه في السجن حتى انقذته يد العناية وخرج من السجن بسبب رؤية الملك .

***

ونعود بعد القصة الى بعض الذكريات السابقة فنجمع بين يوسف واخوته مرة ثانية فيعرفهم وهم له منكرون ، ويحتال عليهم حتى ياتوه باخ لهم من ابيهم ويحتالون هم بدورهم على ابيهم ليرسل معهم ذلك الاخ ، ويحتاط والدهم كما احتاط أولا ، ولكن القدر الذي يوجه القصة يدفعه الى القبول ويذهب الاخ الى أرض مصر حيث يقيم يوسف . فآواه اليه وقال اني انا أخوك فلا تبتئس .

واحتال يوسف عليهم مرة ثانية حين جعل السقاية في رحل أخيه ، وحين اذن المؤذن بأنهم سارقون ، وحين سألهم عن جزاء السارق ، فقد كان هذا الجزاء هو كل

ما يطلب يوسف ، وما كان ليأخذ اخاه في دين الملك الا أن يشاء الله ، ويحاول هؤلاء الاخوة دفع احدهم مكان السارق وباني يوسف ويستعيد بالله أن يكون من الظالمين ، ويرحل الاخوة ويبقى كبيرهم على يبرح الارض حتى يأذن له أبوه او يحكم الله ، ويطلب اليهم أن يخبروا أباهم بكل ما حدث ، وأن يدعوه الى السؤال عن صحته الحادثة بسؤاله اهل القرية التي كانوا فيها ، أو العير التي أقبلوا فيها ، وهنا تعاود الرجل افكاره السابقة ويخبرهم بأن قد سولت لهم أنفسهم أمرا ، ويستسلم للقدر كما استسلم له اولا ، ويصبر ذلك الصبر الجميل الذي يحوطه الأمل بأن الله سيأتيه بهم جميعا وتغشى الرجل سحابة من الحزن قاتمة حتى ليكاد أن يكون من الهالكين ، وتطوف بنفسه خواطر ملهمة فيدفع أبناءه الى الذهاب للتحسس من يوسف وأخيه ، ويطلب اليهم ألا ييأسوا من روح الله فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ، ويذهب هؤلاء ويلتقون بيوسف للمرة الثانية ، وهنا يعيد الى أذهانهم ما الم بها من حيل المكر والكيد ، ويسألهم عن فعلتهم التي فعلوها وهم جاهلون .

ويعرف القوم الحقيقة ، ويسألونه عن نفسه فيقدم لهم نفسه وأخاه ، ويبشرهم بأن ذلك جزاء الصبر والتقوى ، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ويعترفون بخطيئته ويعترفون له بالفضل وايثار الله له عليهم ، ويحس يوسف بما في أنفسهم من احساس باللوم والتعنيف ، فيخفف وقع ذلك عليهم فلا تثريب عليهم ، اليوم يغفر الله لهم وهو ارحم الراحمين .

ويعود الاخوة بقميص يوسف ، ويلقونه على وجه أبيهم فيرتد اليه البصر ، ويقبل الأب والأبناء ، ويستقبلهم يوسف استقبال الأب البار والأخ المطمئن ، ويفيض الحنان من قلبه وتجري عبارات الشكر على لسانه ، ويذكر اباه بما كان بينه وبينه من حديث « **فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ، ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا ابت هذا تاويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ، وقد احسن بي اذ اخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي ، ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم** » .

فأنت ترى هذه القصة بنيت بناء محكما من حيث فن البناء القصصي ، ففيها وحدة الموضوع ، واحكام التصميم وفيها جودة الحبكة ، وفيها الالتفاع بالحوادث الاستطرادية .

وشخصية يوسف هي الشخصية الرئيسية التي تدور حولها الحوادث ، اما غيره من الشخصيات فتظهر وتختفي كلما دعت الحوادث ، فيظهر الاخوة في ارض فلسطين حيث كان يقيم معهم ، ويختفون حيث رحل ، وتظهر السيارة كوسيلة لانتقال يوسف من البدو الى الحضر ، ويختفون الى غير رجعة حين باعوا للعزيز ، ويظهر العزيز وامرأته وواحد من أهلها وبسوة المدينة .

كل يؤدي دوره المنوط به حيث يكون مسرح الحوادث بيت العزيز ، ثم يختفون

حين ينقل يوسف الى السجن - وهنا يظهر صاحباه ، ويتركه احدهما الى غير رجعة حين يصلب ، ويعود اليه الثاني مرة ثانية حين يرى الملك رؤياه -

ويظهر الملك على مسرح الحوادث حين تسمع رؤياه ، ويبقى حتى يسلم خزائن الأرض ليوسف بعد ان يبرئه من دعواه ، ويحضر النسوة ليعترفن بما قدمت أيديهن من شر لهذا الفتى . ويختفي الملك والنسوة ويظهر اخوة يوسف مرة ثانية ، ويبقون على المسرح حتى ينقلون الى مصر ومعهم أبوهم ومن شاء .

فانت ترى ان الشخصيات الرئيسية هي شخصية يوسف ، وان الشخصيات الأخرى شخصيات ثانوية تظهر وتختفي حسب الخطوط او حسب ما يؤدون من أدوار وقد حللنا فيما مضى شخصيتين من هذه الشخصيات هما يوسف وشخصية امرأة العزيز .

والأحداث في هذه الشخصيات احداث عادية تقع لكل شخص وفي كل زمان ومكان ، فليس بعيد ان يرحل اسرائيل من بلد الى آخر وهو فقير معدم ، فتصير اليه مقاليد بيت المال ، وليس ببعيد أن تقع كل هذه الأحداث لشخص فيكون موقفه منها موقف يوسف ـ حتى حادث المراودة ، ولا تستغرب الاحالة القاء القميص على وجه ابيه وارتداده بصيرا فتلك قد تكون من خصائص الأنبياء .

***

وأمكنة الأحداث هنا متميزة بعض التميز ، فهي حينا أرض فلسطين التي كان يسكنها يعقوب ، وهي حينا ارض مصر : بيت العزيز أو السجن أو بيت المال -

والآراء والأفكار عادية ، وكذا ما كان يمضي بين الشخصيات من حوار ، والانفعالات القوية والغرائز المؤثرة في مجرى الحوادث ، من الأمور التي تؤثر أثرها في كل لحظة من لحظاتنا في الحياة - فالحقد والحسد والحب أقوى العواطف والغرائز في القصة ، وهي الأمور التي تلمس في كل مجتمع منذ خلق الله الأرض والسماء -

وعنصر الرؤى هو الذي يجري قليلا مع الاتجاهات الدينية حيث تفسر على أنها الأمور الغريبة من أمور الوحي ، ولابد من أن تصدق وتقع في الحياة .

وتفاوت الخطوط موجود ، واختلافها على يوسف واضح ، حتى لا يحتاج الى تفسير او ايضاح .

وعلى كل فقصة يوسف من القصص الفني المحكم البناء - وقد اجتمعت فيها كل العناصر القصصية التي تورعتها القصص المختلفة في القرآن -